الفصل الثالث

شكسبير الصغير

* عندما كان يفعلها فى سراويله خوفًا من مقرعة شيخ الكتاب .
* ابن الأغنياء يتظاهر أمام زملائه التلاميذ الفقراء بأنه واحد منهم .
* كان يتمنّى أن يصبح مقرئًا .
* مظاهر الفنّ فى حياته أيام الطفولة .
* والدته هى أستاذته الأولى فى الفن الروائى .
* دم مسفوك بينه وبين الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى .
* عندما قال له والده : « ياخايب ياتنبل » .

obeikandl.com

تلميذ الكتّاب

بدأ دراسته ككلّ أبناء الريف فى كتّاب القرية . ولم يخف شيئًا من خصوصياته فى تلك المرحلة ، فكتب يقول :

– فى تلك المرحلة كنت أذهب إلى الكتاتيب فى كلّ بلدة نحلّ بها ، ولابدّ أنهم أرسلونى إليها فى سنٍّ مبكرة جدًّا ؛ لأنى أذكر صورًا غامضةً عن حاجتى الملحّة الضاغطة إلى التبول والمرحاض ، ولكن خشيتى من المقرعة الجريد المرفوعة فى يد شيخ يحفظنا القرآن ، كانت تفزعنى وتلجم لسانى عن الإفصاح بحاجتى ، فكنت أكتم ما بى ، وأعود إلى البيت كلّ يوم ، وقد فعلتها فى سراويلى .

يكره مظاهر الغنى

وقد جبل الطفل الصغير على الحياء والخجل والتواضع ، يتحلّى بالخلق الكريم ، بلا تعال أو حبٍّ للظهور ، فبالرغم من نشأته فى أسرة ذات ثراء ، فإنه كان يتظاهر بالفقر بين زملائه التلاميذ الفقراء ، لأنه كان يريد الانتماء إليهم .

لعلّك قرأت تلك الواقعة الطريفة التى رواها فى « عودة الروح » بطل الرواية « محسن » الذى نعرف ، أنه هو المؤلف ، فقال :

– يوم كان له من العمر ثمانى سنوات ، كان تلميذًا بمدرسة دمنهور الابتدائية وكان له رفاق صغار فقراء ، وكان هو أغناهم وأفضلهم أسرة . فهو محسن العطيفى بن حامد بك العطيفى ، كبير الأعيان فى البلد وأثراهم . ولقد أراد أن ينشئ ابنه محسن على الترف والنعمة واليسر ، فأحاطه بألوانها .

ولكن محسن كانت له نفس من تلك النفوس التى تمجّ النعمة والترف ، ولعلّ من النفوس من عذبتهم الثروة . . لقد كان محسن يخجل سرًّا ويتألم لأنه غنيّ ، وكم مرة ناضل وبكى وصرخ ، حتى لا يلبسه أهله ثيابًا فاخرة .

وكم من تضرعات وتوسلات ودموع كى لا يرسلوا إليه العربة ، تنتظر خروجه بباب المدرسة . . ما كان محسن الصغير يتمنّى غير شىء واحد ، أن يكون مثل رفاقه الفقراء .

لا شىء كان يذيبه خجلاً سوى أن يبدو ممتازًا على أقرانه بثوب أو نقود أو مظهر ثراء . واشتد به الأمر إلى حدّ أنه كان يخفى اسم أسرته عن رفاقه .

وهكذا لبث فيهم طويلاً وهم يحسبونه مثلهم تلميذًا عاديًا بسيطًا من والدين فقيرين أو متوسطى الحال ، إلى أن كان يوم نحس أغبر عند محسن . فقد أصيب مرةً بانحراف فى صحته ، وخشيت والدته عليه ، ولم تستطع الإصغاء إلى توسلاته ، فأرسلت له العربة تنتظره ، على غير علم منه .

وخرج التلميذ الصغير محسن كعادته فى رهط من زملائه الصغار ، يضحكون ضحكاتهم الصافية الساذجة السعيدة ، وإذا هو يرى نفسه أمام عربة والديه الفخمة وكانت دقيقةً من الخجل لا ينساها ، ولكنه تجلّد فى الحال ، وتجاهل العربة وحوذيها ، وأراد المضى فى سبيله ، كأن ليس له بها شأن ، ولكن الأسطى أحمد الحوذى ، لمح سيده الصغير ، فناداه . . فارتجف محسن وتصامم

وانحشر فى زمرة رفاقه حشرًا ، كأنما يريد الاختفاء بينهم والهرب معهم ، وكأنما النداء ليس له ، ورأى الحوذى منه ذلك ، فناداه مرةً أخرى باسمه قائلاً :

– سى محسن بك . . سى محسن بك . تفضّل هنا . . وجرى إليه ليأتى به إلى العربة .

وكانت هى اللحظة التى فهم فيها رفاق محسن ، من هو صديقهم . . وعندئذ جعلوا يرسلون أبصارهم إليه طورًا ، وطورًا إلى العربة الفاخرة بجواديها المطهمين نظرات بريئة ساذجة ، فيها شبه ذلّة وخضوع .

أىّ أثر لا يمحى تركته فى نفس محسن تلك النظرات ، إنهم فى الواقع ما كانوا يقصدون بها أىّ معنى . . أولئك الصغار البسطاء ، ولا يمكن لهذا العمر الطاهر البرىء أن يعنى شيئًا . فقد أطرق محسن يائسًا ، واتّجه نحو العربة ، كمحكوم عليه ، وكأنما يسمع فى أعماقه ، صدى حكم لا يقبل نقضًا ، يهتف :

– محسن خرج من زمرتنا ، إلى الأبد !

ابن القاضى

وواقعة أخرى فى هذا السياق أوردها فى كتابه « سجن العمر » ، وقال :

– لما استقر بنا المقام فى مدينة صغيرة ، هى « دسوق » التحقت بمدرستها الكبرى الوحيدة فى البلد ، وهى مدرسة « الجمعية الخيرية الإسلامية » . كان والدى قاضى البلد ، وكنا نقطن بيتًا بينه وبين المدرسة أرض خلاء تتخذها المدرسة فناءً تجتمع فيه الطوابير . . ولا أنسى ذات يوم وقفنا فيه صفوفًا فى

طابور الصباح ، والناظر يشرف علينا . . وإذا رجل قد مر أمامنا فحيّاه الناظر باحترام ، ثم نادى فى الطوابير « سلام ألـ » – وهو نداء التحية بالتركية فى ذلك العهد – فدقّت المدرسة كلّها بأرجلها فى الأرض ، وارتفعت الأيدى إلى الطرابيش بالسلام . . لم يكن هذا الرجل الذى حياه الناظر والمدرسة سوى والدى . .

خرج من البيت مصادفةً ساعة وقوفنا فى الطابور ، فأدّى خروجه إلى هذا الاستقبال بالاحترام من المدرسة وناظرها . إنه قاضى البلد . .

كان شعورى وقتئذ مزيجا من فخر داخلىّ قليل ، مع الكثير من الخجل والحياء . . لست أدرى ، لماذا كنت أريد أن أختفى فى باطن الأرض ، وأن يجهل التلاميذ كلّ علاقة لى بهذا الرجل ، الذى يحيونه بالسلام الرسمى . ولو كان الناظر ، قد خطر له فى تلك اللحظة أن يخرجنى من الصف ، ليضعنى إلى جوار والدى أمام الحشد من الطوابير ، لكنت قد سقطت لا شكّ مغشيًّا على . .

ثم يضيف قائلاً : « لست أدرى تعليلاً لهذا الشعور » .

لكننا ندرى من واقع حياته ، أنه سيظل محتفظًا بتلك الخصال كإنسان عادىٍّ بسيط ، ينبذ حياة المظاهر وحبّ التميز عن الآخرين . وهذا سرّ من أسرار عظمته .

قارئ القرآن

وكان فى حداثته مشهورًا بالصوت الجميل ، فى ترتيل القرآن الكريم .

فهو يتساءل كعادته ، فيقول :

– متى كان أوّل انفعال لى بالجمال الفنى ؟ لعلّ أوّل مظهر من مظاهره اتخذ صورة التلاوة القرآنية الجميلة يوم كنت فى الريف فى « أبى مسعود » ، أحضروا لى شيخًا يحفظنى القرآن ، ويعلمنى مبادئ القراءة والكتابة . كان ذلك الشيخ جميل الصوت ، يعلّمنى ويحفظنى ساعةً ، ويتلو القرآن ساعةً ، ويؤذّن للصلاة فى « المصلّة » القائمة على حرف القرية . كانَ الإعجاب بصوت هذا الشيخ فى كل الناحية ، حافزًا لى على محاكاته . فكنت أحفظ ما يلقّننى إياه من الآيات لأتلوها مثله بصوت جميل . . ويظهر أنه كان لى مثل هذا الصوت ، إذ كنت أسمع من يطربه ويثنى عليه ، فيزيدنى ذلك إقبالاً على التلاوة وتجويدًا لها . وشعرت لأوّل مرة فى قرارة نفسى بما يشبه الشعور باللذة الفنية . ذلك الذى نصفه اليوم بإحساس الفنان وهو يقوم بعمل فنى .

مواكب الفن

ولاحت أمام عينيه وهو على أبواب العاشرة ، صورة أخرى من صور الفن فى مولد سيدى إبراهيم الدسوقى ، حين رأى الموكب الذى يتقدمه الخليفة على حصانه شاهرًا بسيفه ، تحفّ به البيارق والأعلام والبناديز والرايات بمختلف الألوان والطبول الكبيرة والمزامير بمختلف الأحجام . ثم عربات النقل الكثيرة ، يتلو بعضها البعض فى صفٍّ طويل لا ينتهى ، تجرّها كلّ أنواع الدواب من خيول وبغال وحمير وبقر وجواميس وثيران ، كل عربة تمثّل حرفةً من الحرف بكلّ أدواتها ، وأهل « الكار » فيها . . فالحدادون على عربتهم أمامهم الكور والسندان يضربون بالمطارق ممثّلين عملهم ، ثم يأتى النجّارون بالمناشير .

obeikandi.com

والبناؤون بالمسطرين ، والفخرانية بالقلل والأباريق ، والسمكارية بالكيزان وفوانيس رمضان . كلهم يمثلون أدوارهم فى الحياة . . حتى الفكهانية لهم عربتهم قد علّقوا عليها الأغصان يتدلّى منها التفاح والبرتقال نوع من كارنفال ساذج . . ولكن تأثيره على نفسه كان شيئًا عجيبًا .

ثم حدث له وهو فى تلك السن الصغيرة ، ما حدث للشاعر العظيم وليم شكسبير عندما شاهد فى قريته « استراتفورد أبون أفون » فرقةً من الممثلين المتجوّلين ، وهو فى الخامسة من عمره ، فقد شاهد الحكيم أيضًا وهو على أبواب العاشرة ، أوّل صورة من صور الفن الحقيقى . يوم هبطت مدينة « دسوق » جوقة الشيخ سلامة ، أو لعلها ، على الأرجح – كما يقول – إحدى الفرق التى كانت تقلّده وتطوف برواياته وتتخذ اسمه فى الأقاليم .

كتب انطباعاته عن هذا الحدث الفنى الهام فى حياته ، فقال :

– نصبوا لهذه الجوقة مسرحًا من الخشب ، فى إحدى رحبات البلد ، غطّوه بقماش الصواوين . رفعت عليه الزينات ، وتدلّت كلوبات الغاز ، وارتدى أفراد الجوقة ملابس « شهداء الغرام » أى رواية « روميو وجولييت » لشكسبير مطعّمةً بالقصائد والألحان ، التى لا تخطر له على بال .

وجعلوا منذ الصباح يطوفون بشوارع البلد ، فى ملابس التمثيل المزركشة هذه ، وقد تدلّت شعورهم الشقراء المستعارة على الأكتاف ، تعلوها قبعات القرون الغابرة ، المحلّاة بالريش الطويل ، والخناجر والسيوف تبرز من أحزمتهم . فيجرى خلفهم الصبية والغلمان ، ويترك أهل الحرف أعمالهم وحوانيتهم ، وتقف صفوف الجموع تتفرج عليهم ، وتطل المحجّبات من النساء يشاهدن من خلف النوافذ ، ويصبح البلد ولا حديث للناس فيه إلّا قدوم جوقة

الشيخ سلامة حجازى .

وكان مأمور البندر وأعوانه والمحكمة والنيابة ، فى طليعة من يحضرون لياليه وتحجز لهم الأمكنة . وذهب والدى بالطبع ذات ليلة ، وأخذنى معه بعد تردّد طويل . خشى علىّ من السهر . ولو لم يصطحب معاونوه فى المحكمة أولادهم ، ويسمع من قال له منهم :

– ولماذا لا تأتى بأولادك يتفرجون ؟

لولا ذلك لما فكر فى اصطحابى إلى ليلة كهذه !

لا أنسى تلك الليلة . . رفع الستار عن الفرقة كلها بملابسها البراقة تخطف الأبصار ، وقد اصطفّ رجالها ونساؤها صفوفًا ، وجعلوا ينشدون جميعًا نشيد الافتتاح ، ثم تفرقوا وبدأ التمثيل .

لم أفهم يومئذ بالطبع شيئًا كثيرًا من تفصيلات المسرحية . كلّ الذى همّنى وخلب لبّى هو المبارزات بالسيوف . فكان أوّل ما صنعت فى اليوم التالى أن كسرت يد المكنسة وجعلتها سيفًا ، وطلبت إلى المبارزة خادمًا كان عندنا » .

وتذكره المكنسة بظهور المذنب « هالى » فى السماء فى ذلك العهد لأنه كان يصعد إلى سطح البيت مع أهله لمشاهدته ، ويسمعهم يقولون عنه إن هذا النجم له ذيل مثل رأس المكنسة .

ويحكى عن الخادم الذى كان يقوم بمبارزته بيد المكنسة ، أنه كان يذهب فى الليل إلى مقهى بلدى به شاعر ربابة ، يروى فيه قصة أبى زيد الهلالى ودياب ابن غانم والسفيرة عزيزة . فكان يحلو له أيضًا أن يمسك بقطعة طويلة من الخشب ، ويصيح بى قائلاً :

– أنا أبو زيد الهلالى وأنت الزناتى خليفة !

ثم يسرد عليّ ما سمعه من الشاعر ليلاً ، فكانت تقع هذه القصص من نفسي موقعًا حسنًا ، ونمضى أوقات العصر كلها نمثلها ونتبارز .

أستاذته الأولى

لكن معلمته الأولى فى القصص والروايات ، هى والدته . فقد كتب فى ذلك يقول :

– إن الذى جعلنى أعيش بكل وجدانى على نحو أعمق ، هو طول رقاد والدتى ، الذى اضطرها إلى شغل الوقت بقراءة قصص « ألف ليلة » و « عنترة » و « حمزة البهلوان » و « سيف بن ذى يزن » ونحوها .

كانت فى أجزاء طويلة ، ما تكاد تنتهى من جزء ، حتى تقصّ علينا ما قرأت عندما نجتمع حول فراشها . كان يحلو لها ذلك . وكانت تجيد سرد هذه القصص علينا لا تترك تفصيلاً إلّا حاولت تصويره ، فكنت أنا وجدّتى نجلس إليها وكلنا آذان تصغى بانبهار ، وأحيانًا كان ينضم إلينا والدى ، بعد أن يفرغ من دراسة قضاياه وكأنه أصيب العدوى منا . فإذا انتهى السرد بأبطال القصة فى موقف يزيدنا اشتياقًا إلى البقية . قالت والدتى :

– انتظروا حتى أقرأ الجزء التالى .

وتتركنا على أحرّ من الجمر ، ونحن نعيش بكلّ أرواحنا على أولئك الأبطال ننتظر العودة إليهم . وكانت لا تكتفى بمجرد السرد ، بل تصاحبه بالتعليقات من عندها لتقرّب الشخصيات من أفهامنا . فتقول مثلاً إن هذه الشخصية الطيبة تشبه فلانًا الطيب من أقاربنا أو معارفنا ، وإن هذه الشخصية الشريرة تشبه

obeikandi.com

فلانًا أو فلانة الشريرة ممن نعرف فى محيطنا . فكنت بذلك أعير فى مخيلتى أبطال القصص سحنًا أو وجوهًا ممن نعرفهم فى الحياة .

وفرغت كل الملاحم الشعبية القديمة بطبعاتها الرخيصة المشوهة ، وبدأت تظهر فى السوق روايات أوربية مترجمة بأقلام الكتاب الشوام ، الذين حذقوا اللغات ، ونشأوا فى مدارس الرهبان ، فتعلقت بها والدتى أيضًا ، وقصّتها علينا كما فعلت بسوابقها ، كان لهذا ولا شك فضل كبير لوالدتى لا ينكر فى تفنيط خيالى منذ الصغر . وظلّ حالها معنا على هذا النحو إلى أن شفيت وغادرت الفراش ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى أمور معاشها ، وشغلت بمشكلات الأطيان التى اشترتها ، فانقطع عنا هذا المورد السهل الذى كان يغذّينا بالقصص دون جهد منا .

وبهذا انتقلت عدوى قراءة القصص والروايات من الأم ، إلى الطفل الصغير الذى سوف يصبح فيما بعد أعظم كاتب روائى فى مصر . فقد تكوّنت لديه ملكة القراءة منذ الصغر ، بسبب الشغف بتلك القصص والروايات . فيقول :

– على أنى قد بدأت أقرأ ، فلم أر بُدًّا من الاعتماد على نفسى . صرت أبحث عن القصص والروايات التى كنت أراها فى يد والدتى ، فأخرجها من صناديق الأمتعة القديمة وأعكف على قراءتها بسرعة . كلمة أفهمها وكلمة تستغلق على فهمى ، لعل هذا ما ساعدنى على إجادة اللغة العربية ، قبل الظفر بتعليم منظم .

من بين الكلمات التى كنت لا أفهمها كلمة « نص » بفتح النون ، كنت أقرأها بضم النون على أنها « نصف » ، فإذا صادفتنى قصة مفتاحها فى خطاب يقول فيه مرسله الذى يكشف لنا عن السر الرهيب ، وصدّره بعبارة : « وهذا

هو نُصّ الخطاب » ثرت فى نفسى من الضيق وقلت : ولماذا « نُصّه » ؟ نحن نريد الخطاب كلّه لا نصّه « أى نصفه » .

زهير بن أبى سلمى

إلّا أن والدى ما كان يرضيه مثل هذه المطالعات . فكنت أقرؤها خفيةً تحت سريرى ، المغطى بملاءة مسدلة كستارة تحجب الضوء . كنت أمضى فى القراءة فى الظلام حتى أعجز عن تمييز الأسطر ، فأخرج خفيةً ، وآتى بشمعة . إلى أن حدث يومًا أن تركتها مضاءةً ، فاشتعلت النار فى الغرفة . ولم يدر أحد سبب ذلك الحريق .

وقصّ تلك القصة عن نوع قراءات أبيه المفضلة فى الشعر القديم ، فقال :

– ذات يوم نادانى والدى ، قائلاً :

– تعال أمتحنك !

وناولنى كتاب « المعلّقات السبع » ذلك الكتاب الذى كان يحبّه ويترنّم بأبياته ، وأخرج لى معلّقة « زهير بن أبى سلمى » وطلب منى أن أقرأ بصوت مرتفع ، فلما وصلت إلى ذلك البيت :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بميسم

سألنى عن معنى « يصانع » فلم أوّفق إلى إجابة صحيحة . وأين لمن كان فى مثل سنّى وقتئذ أن يعرف حقيقة المصانعة فى الحياة ، وهو يجهل الحياة نفسها . فلما لم أجب بما يقنعه ، رفع كفّه وضربنى على وجهى ضربةً أسالت الدم من أنفى ، فأخذت ألعن المعلّقات وأصحابها ، بل ألعن الشعر كلّه . وكان من

obeikandi.com

الطبيعى والمنطق أن أحبّه كما أحبّ أبى ، ولكن الدم الذى سال من أنفى بسببه بغّضه إلى نفسى مدةً طويلة ، وكيف كان يمكن أن أحبّه وقتئذ ، وبينى وبينه دم مسفوك .

معجزة

وقد أصيب بسبب الإدمان على القراءة تحت ضوء مصباح خافت بألم فى عينه اليمنى وبرغم هذا الألم داوم القراءة ، حتى أصبحت العين حمراء ككأس من الدم يملؤها الصديد فصرخت والدته مرتاعة ، وذهبت به فى الحال إلى دمنهور وعرضته على طبيب . لكن الداء استعصى عليه وانزعج أهله عليه ، ولم ينكر الطبيب أن عينه اليمنى مهدّدة بفقدان البصر ؛ إذا لم تحدث معجزة .

أمضى أجازة الصيف فى هذا العام تحت وطأة المرض ، حتى حدثت المعجزة على يدى حلاق ، ما يزال الحكيم يذكر اسمه إلى اليوم ، وهو « على النوم » .

فقد سهر هذا الحلاق على علاجه ، وفصد كل الدم فى عينه بواسطة الديدان . وكان يلبث بجانب فراشه طول الليل ليغسل له عينه دقيقة بدقيقة فلم يكن يرفع القطنة المبللة بالبوريك إلّا ليضع قطنةً جديدة ، حتى زال الخطر ، وحدثت المعجزة .

مظلوم

وعلقة ثانية لا ينساها ، غير علقات الضرب بالمقرعة الجريد على قدميه ، يحدثنا عنها فى كتاب «سجن العمر» أيضًا ، فيقول :

– فى سنتى الأولى الابتدائية ، عرفت زميلاً كان يلعب معى أيام العطلة الأسبوعية . وفى يوم الجمعة جاء إلى منزلنا فى شارع الخليج المصرى ، يحمل نفيرًا كبيرًا مكسورًا ، لفونغراف قديم ، وصرنا نلعب فيه ساعة ، وإذا بوالدى يقبل علينا فى طريق خروجه متكئًا على عصاه ، فلما رأى زميلى وكان يصغرنى فى السن قال له :

– أنت مع الولد توفيق فى الفصل ؟ فأجابه بالإيجاب ، فسأله عنى :

– هل هو مجتهد ؟

فما كان من زميلى وصديقى الذى كنت ألاعبه منذ لحظة ويلاعبنى بكلّ صفاء وهناء إلّا أن قال بكل بساطة :

– هو بليد .

ثم أردف قائلاً عن نفسه :

– وأنا شاطر !

وعندئذ لم أشعر إلّا وعصا والدى قد رفعت فى يده لتنهال على جسدى ، دون سؤال أو تحقيق . ففررت جاريًا هاربًا ، واختبأت تحت سريرى . وتبعنى والدى بالعصا وهو يصيح :

– ياخايب . ياتنبل . والله لأوريك !

وسمع صياحه من فى البيت ، وأقبلت والدتى وجدّتى تسألان عن الخبر ، فقال لهما والدى ، وهو يبعدهما عن طريقه :

– الولد بليد وغير فالح فى المدرسة ، الولد الأصغر منه شاطر وهو خائب !

وانحنى يبحث عنى بعصاه تحت السرير . فكنت أبصر طرف العصا يلاحقنى فأتفاداه وأنا أرتعد من الخوف . ولم أذرف دمعةً ولم أصدر شهقة ، فقد جمّدت الرهبة والدهشة كلّ مشاعرى ، لم أبك إلّا بعد أن ابتعد عنّى والدى ، على أثر دفاع جدّتى عنّى وسحبها إياه من عصاه خارج الحجرة ، بكيت لا لشعور بألم . فأنا لم أضرب ولم تمسسنى العصا . ولكنى بكيت لشعورى بالظلم .

ويضيف الحكيم قائلاً :

– وجاء امتحان آخر العام للنقل إلى السنة التالية ، فإذا أنا ناجح منقول بتفوّق ، وإذا زميلى من الساقطين الراسبين . وعجب والدى ، واعترف أنه ظلمنى فى ذلك اليوم .

جوق سلامة حجازى

وعندما كان تلميذًا بالسنة الثانية الابتدائية فى مدرسة المحمدية بالحلمية الجديدة . شاهد جوق الشيخ سلامة حجازى الحقيقى ، فى رواية « شهداء الغرام » التى شاهدها من قبل فى دسوق من الجوق التقليد . فيقول :

– كان من بين زملائى تلميذ فى مثل سنى صادقته لطول ما كان يحدّثنى عن

المسارح التى ارتادها . أذكر أنه حدثنى بتفصيل أدهشنى عن مسرحية فيها شىء كنار الجحيم بلهبه وأبالسته تظهر فى منظر جمل يصنعه وأنا فاغر فمى كالمخبول . وقال فيما أذكر ، إنها رواية « تليماك » فى جوق الشيخ سلامة حجازى ، كما حدثنى أيضًا من بين رواياتها عن رواية عطيل بألحانها وقصائدها ، كما كانت تعرض وقتئذ فى تلك الفرقة ..

وسألت أهلى ذات يوم جمعة أن يذهبوا بى إلى مشاهدة الشيخ سلامة ، حتى أستطيع محادثة صديقى ذاك فيما رأيت أيضًا . وقد كنت فى المرحلة التى أستطيع فيها فهم تمثيله وتقدير غنائه وقصائده ، أكثر مما استطعت فى دسوق منذ سنوات عدّة . وكان لى ما أردت . فقد صحبتنى والدتى وجدّتى ذات ليلة ، إلى رواية « شهداء الغرام » فتتبعتها جيدًا ، وسمعت فيها غناء الشيخ سلامة فى قصيدته المشهورة : « أجولييت ما هذا السكوت ؟ » إلّا أن الشيخ فى ذلك الوقت كان يعرج قليلاً على المسرح ، ويتكئ على كرسى ، كان قد أصيب بالفالج .

ركب القطار من النافذة

وروى كيف قذفوا به وبحقيبته إلى القطار المزدحم من النافذة ، فقال :

– فى يوم امتحان شهادة الابتدائية فى الإسكندرية ، كنت فى دمنهور ، فأوصلنى والدى إلى المحطة ، ومعى حقيبة ملابسى وكتبى ، وقطع لى تذكرة درجة ثالثة ، وأقبل القطار . وحاذت العربة « الترسو » الرصيف . فإذا بها محتشدةً بركابها الفلاحين والفلاحات . وقد سدّوا الأبواب والنوافذ بصررهم

وقففهم ومقاطفهم وزكايبهم . وكان من المستحيل أن أشقّ طريقًا إلى دخول العربة من الأبواب . فماكان من الحمّال الذى يحمل حقيبتى إلّا أن حملنى أنا وقذف بى وسط العربة من النافذة وقذف خلفى بحقيبتى فوقعت فوق رؤوس النسوة المتدثرات فى الملس الأسود ، فصرخن وصرخ لصراخهن الرجال :

– إيه ده ياأفندى ؟

فانتصبت واقفًا واعتذرت بكلمات لا تكاد تخرج من حلقى .

وهكذا سافرت بمفردى فى هذه الدرجة الثالثة . لم أجلس طول الطريق إلّا فوق حقيبتى ، وأنا أتلقّى شتائم الركاب ، وقولهم : « حاسب ياأفندى » كلما مرت بى امرأة حاملة طفلها الذى يبكى ويبول !

openkandl.com